إتحاف الأذكياء
بجواز
التوسل بالأنبياء والأولياء

تأليف

السيد عبد الله الصديق الحسني

من علماء الحديث

الناشر

علي رحمي

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك ونشكرك على ما أوليتنا من عميم فضلك وجزيل إحسانك ونسألك أن تجعل أفضل صلواتك وتسليماتك ، وأزكى بركاتك وتحياتك ، على سيدنا محمد واسطة عقد الوجود والوسيلة العظمى في وصول الخير إلى كل موجود ، وأرض اللهم عن آله الطيبين الطاهرين ، وعن خيار صحابته من الأنصار والمهاجرين .

أما بعد فإني طبعت فيما مضى رسالة صغيرة سميتها اتحاف الأذكياء بما ورد في التوسل بسيد الأنبياء وغيره من الصالحين والأولياء جمعت فيها ما تيسر الوقوف عليه إذ ذاك من الآثار الدالة على جواز التوسل وأنه لا اشراك فيه ولا كفر خلافاً لما يزعمه الوهابية المتنطعون .

وقد لقيت الرسالة على صغرها رواجاً وإقبالاً حتى نفدت نسخها فأردت أن أعيد طبعها مع زيادة فوائد انتقيتها من كتابي « الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين ، في حكم دعاء ونداء الموتى من الأنبياء والأولياء والصالحين » ورتبتها على بابين .

والله المسئول أن ينفع بهذه الرسالة من قرأها ويزيل من صدره داء التنطع والتعصب ان كان من أولئك المتنطعين المتعصبين ، وأن يوفقه ويهديه ، إنه قريب مجيب .

الباب الاول فى ذكر الادلة

الدليل الأول ، قال الله تعالى فى سورة البقرة (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) روى ابن المنذر فى تفسيره عن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على عليهم السلام قال لما أصاب آدم الخطيئة عظم كربه واشتد ندمه فجاءه جبريل عليه السلام فقال يا آدم هل أدلك على باب توبتك الذى يتوب الله عليك منه قال بلى يا جبريل قال قم فى مقامك الذى تناجى فيه ربك فمجده وامدح فليس شيء أحب إلى الله من المدح قال فأقول ماذا يا جبريل قال فقل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير كله وهو على كل شيء قدير ثم تبوء بخطيئتك فتقول سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت رب إنى ظلمت نفسى وعملت السوء فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم إنى أسألك بجاه محمد عبدك وكرامته عليك أن تغفر لى خطيئتى قال ففعل آدم عليه السلام فقال الله يا آدم من علمك هذا فقال يارب إنك لما نفخت فى الروح فقمت بشرا سويا أسمع وأبصر وأعقل وأنظر رأيت على ساق عرشك(١) مكتوبا بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله فلما لم أر على أثر إسمك اسم ملك مقرب ولا نبى مرسل غير إسمه علمت أنه أكرم خلقك عليك قال صدقت وقد تبت عليك وغفرت لك ، وفى الباب حديث مرفوع سنتكلم عليه بعد بحول الله .

وقال الآلوسى فى روح المعانى فتلقى آدم من ربه كلمات المراد بتلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها فهو مستعار من استقبال الناس بعض الأحبة إذا قدم بعد طول الغيبة لأنهم لا يدعون شيئا من الاكرام إلا فعلوه وإكرام الكلمات الواردة من الحضرة الأخذ والقبول والعمل بها والمروى فى المشهور عن ابن عباس أن هذه الكلمات هى ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا الآية وعن ابن مسعود أنها سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب

(١) أنظر ص ٢٦ تتمة .

إلا أنت ، وقيل رأى مكتوبا على ساق العرش محمد رسول الله فتشفع به وإذا أطلقت الكلمه على عيسى عليه السلام فلتطلق الكلمات على الروح الأعظم والحبيب الأكرم صلى الله عليه وسلم فما عيسى بل وما موسى بل وما وما إلا بعض من ظهور أنواره وزهره من رياض أنواره ، وروى غير ذلك ا ه وفى البحر المحيط لأبى حيان نحـــو ذلك مع حكاية أقوال أخرى فى تعيين الكلمات . وليس بين هذه الأقوال تعارض كما قد يظن لامكان الجمع بينها بأن آدم عليه السلام تلقى تلك الكلمات جميعا إذ أنها لا تخرج عن كونها أذكاراً تشتمل على مدح الله وتمجيده وتوسل إليه بأكرم الخلق عليه واعتراف بالخطيئة . فلا داعى إلى الترجيح أى ترجيح بعض الأقوال على بعض — مع إمكان الجمع بما ذكرناه ، وقد اختار ابن جرير الطبرى قول ابن عباس لكن لم يرد غيره ، وإليك عبارته قال بعد حكاية أقوال مختلفة عن مجـــاهد فى تعيين الكلمات ما نص المراد منه .

وهذه الألفاظ التى حكيناها عنه وإن كانت مختلفة الألفاظ فان معانيها متفقة فى أن الله جــل ثناؤه لقى آدم كلمات فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن وعمل بهن وتاب بقيله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئته فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التى تلقاهن آدم من ربه وهــو قوله « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وليس ما قاله من خالف قولنا هــذا من الأقوال التى حكيناها بمدفوع قوله ، ولكنه قول لاشاهد عليه من الحجة يجب التسليم لها فيجوز لنا إضافته إلى آدم وأنه مما تلقاه من ربه عند إنابته إليه من ذنبه ا ه .

وقوله فيجوز لنا إضافته الخ يشير إلى الجمع الذى قدمناه كما لا يخفى على متأمل والله أعلم .

« الدليل الثانى » قال الله تعالى فى سورة البقرة (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) الآية .

روى أبو نعيم فى دلائل النبوة من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس قال كانت يهود بنى قريظة والنضير من قبـل أن يبعث محمد صلى الله عليه

ووجه الدلالة من هذه الآية ظاهر فان الله سبحانه أقر استفتاح اليهود بالرسول ولم ينكره عليهم وإنما ذمهم على الكفر والجحود بعد إذ شاهدوا من بركة الاستفتاح بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ما لا ينكره إلا من كان أعمى القلب والبصيرة مثلهم ، نسأل الله العافية .

« الدليل الثالث » قال الله تعالى في سورة النساء (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) قال الزمخشري في الكشاف : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت جاؤوك تائبين من النفاق متنصلين عما ارتكبوا فاستغفروا الله من ذلك بالاخلاص وبالغوا في الاعتذار إليك من إيذائك برد قضائك حتى انتصبت شفيعا لهم إلى الله ومستغفرا لوجدوا الله توابا لعلموه توابا أى لتاب عليهم ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيما لشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على أن شفاعة من اسمه الرسول — من الله بمكان ا هـ

فهذه الآية وإن كانت نزلت بسبب المنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت — فهي عامة تشمل كل عاص ومقصر ، لأن ظلم النفس المذكور فيها يشمل كل معصية ، ثم أنها أعنى الآية تدل على الاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حالتي حياته ووفاته لأن كلا من فعلي المجيء والاستغفار وقع في سياق الشرط ، والفعل في سياق الشرط يدل على العموم والاستشفاع في حال الحياة ظاهر ليس فيه خلاف .

وأما في حال الوفاة فالوهابيون يمنعونه متوهمين أن الموت يحول دون تحققه وهو غلط ظاهر لأن الأنبياء أحياء في قبورهم يرزقون بدليل الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب فان الله تعالى قال في حق الشهداء (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

وقال أيضا (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند

وآله وسلم يستفتحون الله يدعون على الذين كفروا يقولون اللهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي ألا نصرتنا فينتصرون فلما جاءهم ما عرفوا يريد محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ولم يشكوا فيه كفروا به ولهذا الأثر طرق ذكرتها في الرد المحكم المتين ، وفي تفسير النيسابوري ما نصه : قوله يستفتحون على الذين كفروا وذلك أن اليهود قبل مبعث محمد ﷺ ونزول القرآن يسئلون به الفتح والنصرة على المشركين إذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته وصفته في التوراة وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم اهـ

ومثله في تفسير الكشاف ، وفي تفسير الخازن ما نصه : وكانوا يعني اليهود من قبل أي من قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون أي يستنصرون به على الذين كفروا يعني مشركي العرب وذلك أنهم كانوا إذا حزبهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما جاءهم ما عرفوا أي الذي عرفوه يعني محمدا ﷺ عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بني إسرائيل كفروا به أي جحدوه وأنكروه بغيا وحسدا اهـ ونحوه في تفسير البغوي والنسفي ، وفي روح المعاني للآلوسي : وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا نزلت في بني قريظة والنضير كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه قاله ابن عباس وقتادة والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم به على المشركين كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي ﷺ وقالوا اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان إن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به كنى عن الكتاب المتقدم بما عرفوا لأن معرفة من أنزل عليه معرفة له والاستفتاح به وإيراد الموصول دون الاكتفاء بالاضمار لبيان كمال مكابرتهم ويحتمل أن يراد به النبي ﷺ وما قد يعبر بها عن صفة من يعقل اهـ المراد منه .

ربهم يرزقون) الآية ولا شك أن الأنبياء أعلى رتبة وأفضل جهادا وأكثر مجاهدة من الشهداء فهم أولى بهذه المزية ، على أن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام جمع الله له بين النبوة والشهادة .

وأما السنة فأحاديث بلغت مبلغ التواتر منها حديث الاسراء الذى أخبر فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، ورأى غيره من الأنبياء يصلون أيضا وهذا الحديث متواتر لأنه ورد من طريق بضع وأربعين صحابيا ، ومنها حديث أوس « أفضل أيامكم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فان صلاتكم معروضة على قالوا وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت يقولون بليت فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والنووى والحافظ عبد الغنى بن سعيد المقدسى والحافظ أبو الخطاب بن دحية والقرطبى والذهبى وحسنه ابن العربي المعافرى والمنذرى ، ومن طرقه ما رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء مرفوعا « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فانه يوم مشهود تشهده الملائكة وأن أحدا لا يصلى على الا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها قال قلت وبعد الموت قال وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حى يرزق » قال المنذرى فى الترغيب والترهيب اسناده جيد . وقال البوصيرى فى الزوائد : اسناده صحيح لكنه منقطع ، ونحوه فى القول البديع للسخاوى ولا يضر انقطاعه لأن له طرقا تعضده منها الطريق السابق ، بل هو مؤيد بالقرآن كما تقدم فى آيتى الشهداء فتعلق الوهابيين بالانقطاع ونحوه لايجديهم شيئا فى هذا الموطن ومنها حديث أنس « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » رواه أبو يعلى والبيهقى وصححه ، ومنها أحاديث أخرى ذكرتها فى الرد المحكم المتين .

وأما الإجماع فحكاه الحافظ السخاوى فى القول البديع قال بعد أن سرد عدة أحاديث تفيد أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم تعرض عليه أعمال أمته وصلاة من صلى منهم عليه وسلامهم — ما نصه : السادسة يؤخذ من هذه

الأحاديث أنه ﷺ حى على الدوام ، وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه فى ليل ونهار ، ونحن نؤمن ونصدق بأنه ﷺ حى يرزق فى قبره وإن جسده الشريف لا تأكله الأرض والإجماع على هذا وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤذنين ، وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم والأنبياء أفضل من الشهداء جزما ا هـ

وحكى الإجماع أيضا ابن حزم فى المحلى ، ولهذا فهم العلماء الآية على عمومها كما قلنا جاء فى تفسير القرطبى ما نصه : ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك روى أبو صالح عن على قال قدم علينا أعرابى بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحثا على رأسه من ترابه فقال قلت يارسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله فوعينا منك وكان فيما أنزل الله عليك ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم الآية ، وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى فنودى من القبر أنه قد غفر لك ا هـ وقد ذكرت هذا الأثر باسناده فى كتابى الرد المحكم المتين مع أثر آخر ذكره ابن كثير فى تفسيره والسخاوى فى القول البديع وغيرهما وهو شبيه بهذا الأثر فى المعنى مع تعدد الفاعل واختلاف زمن الفعل ، والمقصود أن الآية دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سائر الأحوال لأنه فى قبره الشريف حى يرزق تعرض عليه أعمال أمته فيدعو لهم ويستغفر ، ويلحق به فى جواز التوسل كل من ثبتت له هذه المزية كالشهداء والعلماء العاملين والأولياء المتقين ونحوهم والله أعلم .

« الدليل الرابع » قال الله تعالى فى سورة الإسراء (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال البغوى فى تفسيره قوله أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة يعنى الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم قال ابن عباس ومجاهد وهم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم يبتغون أى يطلبون إلى ربهم الوسيلة أى القربة وقيل الدرجة أى يتضرعون إلى الله فى طلب الدرجة العليا وقيل الوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى وقوله أيهم أقرب معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون

به وقال الزجاج أيهم أقرب يبتغى الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ا ه ونحوه فى تفسيرى الخازن وابن جزى .

تنبيه علم من هذه النصوص والآثار التى ذكرناها أن العلماء على اختلاف مذاهبهم متفقون على جواز التوسل وإنهم لا يرون به بأساً لأنهم حملوا عليه آيات من القرآن الكريم وفسروها به كما ترى . ولو كان حراما أو إشراكا كما تزعم الوهابية لما استجازوا أن يتجرأوا على القول فى تفسير القرآن بما هو شرك وضلال ويؤيد هذا قول التقى السبكى فى شفاء السقام ، إن إنكار ابن تيمية للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله .

« الدليل الخامس » روى الحاكم فى المستدرك عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما اقترف آدم عليه السلام الخطيئة قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى فقال الله يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه قال يا رب لأنك لما خلقتنى بيدك ونفخت فى من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك فقال صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى إذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » (١) ورواه الطبرانى وزاد فيه « وهو آخر الأنبياء من ذريتك » قال الحاكم : صحيح ، ورد عليه الذهبى فقال : بل موضوع ، والحق أن الحديث ليس بصحيح ولا موضوع بل هو ضعيف فقط كما صرح به البيهقى فى دلائل النبوة ، وقد نقلت عبارته ورددت كلام الذهبى من ستة وجـــوه وذكرت ما يشهد للحديث فى كتابى الرد المحكم المتين ووجدت له شاهداً يرتقى به إلى درجة الحسن فروى ابن بشران باسناد قوى كما قال الحافظ عن ميسرة الفجر قال : قلت يا رسول الله متى كنت

---

(١) من اللطائف قول العلامة النحوى الفقيه محمد بن على بن يحيى الغرناطى الشهير بالشامى — متوسلا :

جرمى عظيم يا عفو وإنى ... بمحمد أرجو التسامح فيه
فبه توسل آدم من ذنبه ... ولقد اهتدى من يقتدى بأبيه

نبيا قال : « لما خلق الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وخلق العرش كتب على ساق العرش محمد رسول الله خاتم الأنبياء وخلق الله الجنة التى أسكنها آدم وحواء فكتب اسمى على الأبواب والأوراق والقباب والخيام . وآدم بين الروح والجسد فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأى اسمى فأخبره الله أنه سيد ولدك ، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمى إليه » .

« الدليل السادس » روى الطبرانى فى معجميه الكبير والأوسط عن أنس رضى الله عنه قال لما ماتت فاطمة بنت أسد أم على رضى الله عنهما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجلس عند رأسها فقال يرحمك الله يا أمى كنت أمى بعد أمى تجوعين وتشبعيننى وتعرين وتكسينتى وتمنعين نفسك طيبا وتطعميننى تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة » ثم أمر أن تغسل ثلاثا ثلاثا فلما بلغ الماء الذى فيه الكافور وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده ثم خلع قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه ثم دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى وعمر بن الخطاب وغلاما أسود يحفرون فحفروا قبرها فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع فيه وقال « الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فانك أرحم الراحمين » وكبر عليها أربعا وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضى الله عنهما ، قال الحافظ نور الدين الهيثمى فى مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح غير روح بن صلاح وقد وثقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف ا ه . قلت : روح بن صلاح المصرى ذكره ابن عدى فى الضعفاء وقال الدارقطنى ضعيف وذكره ابن حبان فى الثقات وقال الحاكم ثقة مأمون ، على أن ضعفه خفيف عند من ضعفه كما يستفاد من عباراتهم ولذا عبر الحافظ الهيثمى بما يفيد خفة الضعف كما لا يخفى على من مارس كتب الفن ، فالحديث لا يقـــل عن رتبة الحسن بل هو على شرط ابن حبان صحيح .

« الدليل السابع » أخرج الترمذي وابن ماجه في سننهما والنسائي في عمل اليوم والليلة الطبراني والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني قال « إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك » قال : فادعه . قال « فامره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهـــذا الدعاء اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد أني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هـذه لتقضى اللهم فشفعه في » قال عثمان بن حنيف فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط ؛ وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر الضرير أن يتوضأ ويصلي ويدعو بالدعاء المذكور ؛ وفي رواية للحاكم عن عثمان بن حنيف أن رجـلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال « يا رسول الله علمني دعاء أدعو به يرد الله على بصري فقال « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة يا محمد أني قد توجهت بك إلى ربي اللهم شفعه في وشفعني في نفسي » فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر » والحديث روايات وألفاظ منها عند ابن أبي خيثمة باسناد صحيح أن النبي ﷺ لما علم الضرير الدعاء المذكور قال له « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » وهذا أذن بالتوسل في سائر الأحوال ثم إن الروايات كلها متفقة على أن الذي دعا هـو الرجل الضرير لا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ترجم له البيهقي في دلائل النبوة بقوله : باب ما جاء في تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر وما ظهر في ذلك من آثار النبوة اهـ

ثم إن الحديث صحيح صححه الترمذي وابن خزيمة والطبراني والحاكم والبيهقي والمنذري والنووي والذهبي وابن حجر والهيثمي والسيوطي ، بل لا خلاف بين المحدثين في صحته ، وما قيل من أن أبا جعفر في سنده ليس هو الخطمي بل هو آخر مجهول ، ليس بشيء ، والصواب أن أبا جعفر هو الخطمي المدني كما جاء مصرحا به في روايات الطبراني والحاكم والبيهقي زاد الطبراني في المعجم الصغير أن اسمه عمير بن يزيد وأنه ثقة وليس من المعقول

أن يجمع الحافظ على تصحيح حـديث في سنده مجهول خصوصا الذهبي والمنذري والحافظ فمحاولة بعض العصريين لتضعيف الحديث مقضي عليها بالفشل الكبير ، فالحديث صحيح بلا شك وهو يدل على جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الحالات وفي سائر الأوقات كما بينته وأوضحته ببضعة عشر وجها في كتابي الرد المحكم المتين ، ويكفي لبيان ذلك هنا أن نقول : أن العلماء فهموا الحديث على العموم كما هو الواجب في نصوص الشارع فأورده الترمذي في كتاب الدعوات من سننه والحاكم في الدعاء من مستدركه والبيهقي في كتاب الدعوات وهو مؤلف خاص معتبرين له من جملة الأدعية المشروعة المأثورة ، وأورده ابن ماجه في كتاب الصلاة من سننه وكذا فعل المنذري في الترغيب والترهيب والهيثمي في مجمع الزوائد معتبرين الصلاة فيه والدعاء من جمـــلة النوافل المطلوبة ، وأورده النووي في أذكار الحاجة من كتاب الأذكار معتبرا له من جملة الأذكار التي تقال عند عروض حاجة ، وإرادة قضائها ، وأورده غير هؤلاء كابن خزيمة في صحيحه المرتب على الكتب والأبواب وهـذا اتفاق منهم على أن الحديث معمول به في سائر الأوقات والأزمان ولو كان خاصا بذلك الضرير أو بحالة دون حالة أو بوقت دون وقت لم يكن لذكرهم له في كتب الأحكام وغيرها فائدة ؛ أو لنبهوا على أنه خاص ليس بعام كما فعلوا في غيره من الأحاديث التي تكون خاصة ببعض الحالات هذا وقد نقل ابن تيمية في مجموعة الرسائل الكبرى أن عز الدين بن عبد السلام في فتاويه أجاز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وجعله من خصوصياته وقلده في هذا النقل الشوكاني في الدر النضيد ، وإن لم يصرح بذلك وناقشه في دعوى الخصوصية ورأى أعني الشوكاني جـواز التوسل بالعلماء ونحوهم ، والواقع أن النقل المـذكور غلط أو تحريف من ابن تيمية لأني قرأت الفتاوى الموصلية للعز ابن عبد السلام فوجـدت كلامه في الاقسام على الله بخلقه فهو الذي قال فيه أنه من خصوصيات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لا مطلق التوسل الذي هو سؤال الله ببركة فلان أو بجاهه فان هذا لم يتعرض له ، وقد نقلت عبارته برمتها في الرد المحكم المتين .

« الدليل الثامن » أخرج البزار عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ووفاتى خير لكم تعرض على أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله وما رأيت من شر استغفرت الله لكم » قال الحافظ العراقى فى كتاب الجنائز من طرح التثريب : اسناده جيد ، وقال الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد والمحدث القسطلانى فى شرح البخارى : رجال اسناده رجال الصحيح ، وقال الحافظ السيوطى فى كتاب الخصائص : اسناده صحيح ، وكذا قال على القارى والشهاب الخفاجى فى أول شرحيهما على الشفاء ، وله مع هذا نحو عشرين طريقا ذكرت منها ما يزيد على ستة طرق فى الرد المحكم المتين وباقيها مستوفى فى كتاب الاعلام بما تواتر من حديثه عليه السلام لشقيقنا الحافظ السيد احمد ، وهذا الحديث يدل دلالة صريحة على أن النبى عليه السلام يشفع لأمته بعد انتقاله باستغفاره لهم ، وعلى هذا يجوز التوسل به لأنه استشفاع ، وهو الشفيع المشفع المجاب عليه الصلاة والسلام ثم لا يخفى أن عرض الأعمال الذى أثبته هذا الحديث ونحوه عرض إجمالى لا يلزم منه أن يكون النبى صلى الله وآله وسلم عارفا بأعمال الأمة وبأفرادهم على سبيل الاحصاء والتفصيل ، والإحاطة الشاملة ، فان العلم على هذا الوجه من خصوصيات البارى سبحانه وتعالى ولهذا جاء فى حديث الحوض الذى رواه البخارى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « ليذادن ناس من أمتى عن الحوض فأقول يارب أصيحابى أصيحابى فيقال لا تدرى ما أحدثوا بعدك » الحديث أى لا تدرى على سبيل التفصيل والإحاطة ، وهذا كما يعلم الواحد منا أحوال الأقطار الإسلامية وعادات أهلها وأخلاقهم وصناعاتهم وما فى بلادهم من جبال ومعادن وتمر وغيرها لكنه علم إجمالى لا يشمل كل فرد فرد شمولا تفصيليا فلا تعارض بين الحديثين خلافا لبعض الخرقين المعاصرين .

« الدليل التاسع » أخرج ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاى هذا فانى

لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة وخرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك » ، صححه ابن خزيمة ، وحسنه الحافظ أبو الحسن المقدسى والحافظ العراقى والحافظ ابن حجر ، وله مع هذا طريقان ذكرتهما فى الرد المحكم المتين ، ولصديقنا العلامة المطلع الشيخ محمد زاهد الكوثرى كلام على هذا الحديث أحببت أن أورده لفائدته قال رحمه الله : فى الحديث التوسل بعامة المسلمين وخاصتهم وإدخال الباء فى أحد مفعولي السؤال إنما هو فى السؤال الاستعلامى كقوله تعالى فاسأل به خبيرا سأل سائل بعذاب واقع ، وأما السؤال الاستعطائى فلا تدخل الباء فيه أصلا إلا على المتوسل به فدونك الأدعية المأثورة فتصور إدخالها هنا فى المفعول الثانى إخراج للكلام عن سننه بهوى وصيحة باطل تمجها الاسماع ، وليس معنى الحق الإجابة بل ما يستحقه السائلون المتضرعون فضلا من الله سبحانه وتعالى ، فيكون عد السائلين مسؤولا لهذا الداعى هذيانا محضا ، ولا سيما عند ملاحظة ما عطف عليه فى الحديث ، وأما زعم أنه ليس فى سياق الحديث ما يصلح أن يكون سؤلا غير ذلك فمما يثير الضحك الشديد والهزء المديد ، فأين ذهب من هذا الزاعم أن تعيذنى من النار ... ؟

وكم يكرر الفعل للتوكيد فالسؤل فى الفعل الأخير هو السؤل فى الفعلين المتقدمين ، بل لو لم تكن تلك الأفعال من باب التوكيد لدخلت فى باب التنازع ، فيكون هذا القيد معتبرا فى الجميع على كل تقدير وأما من يحاول رد التوسل بتصور دخوله فى الحلف بغير الله فانما حاول الرد على المصطفى صلوات الله عليه لأنه هو الذى علم صيغ التوسل وفيها التوسل بالأشخاص وأين التوسل من الحلف ؟ اهـ وهو على اختصاره كاف فى رد ما أبداه الوهابية من الاحتمالات والتمحلات فى هذا الحديث والله أعلم .

« والدليل العاشر » أخرج الطبرانى عن أمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستفتح بصعاليك المسلمين ، وفى رواية : يستنصر بصعاليك المسلمين ، قال الحافظ المنذرى :

رواته رواة الصحيح وهو مرسل ، قلت لا يضر إرساله لأنه مؤيد بما تقدم من الأدلة وبما يأتي ، على أن المرسل حجة عند المالكية والحنفية وكثير من العلماء كما هو مقرر معلوم .

« الدليل الحادي عشر » أخرج أحمد في مسنده عن شريح بن عبيد قال ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب وهو بالعراق فقالوا العنهم يا أمير المؤمنين قال : لا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « الابدال بالشام وهم أربعون رجلا كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب » اسناده صحيح غير أن فيه انقطاعا لأن شريح بن عبيد لم يلق عليا لكن له شواهد ، فروى الحاكم عن عبد الله بن زرير الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب يقول « لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الابدال وسبوا ظلمتهم » قال الحاكم صحيح وأقره الذهبي ، وروى الطبراني في الأوسط عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنتصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر » قال قتادة لسنا نشك أن الحسن — يعني البصري — منهم ، قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده حسن وللحديث طرق كثيرة أفردت بالتأليف ، ومعنى المثلية في قوله مثل خليل الرحمن أنهم على طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السخاء وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين كما جاء في أحاديث أخرى .

« الدليل الثاني عشر » روى الطبراني عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن لله ملائكة في الأرض سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الشجر فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد أعينوا عباد الله » قال الحافظ الهيثمي : رجاله ثقات ، ورواه البزار وحسنه الحافظ وروى الطبراني أيضا عن عتبة بن غزوان عن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا وهو بأرض ليس بها

أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني » وفي لفظ أغيثوني فإن لله عبادا لا نراهم ، وقد جرب ذلك ، قال الحافظ الهيثمي : رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم إلا أن يزيد بن علي لم يدرك عتبة ، (١) في هذين الحديثين دلالة على أمرين الأول : جواز الاستعانة والاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه خلافا للوهابية الذين يجعلون كل استعانة أو استغاثة شركا أما ما لا يدخل في قدرة المخلوق فلا يستعان فيه إلا الله ولا يستغاث إلا به ، وهذا بإجماع المسلمين وعليه يحمل ما رواه الطبرني عن عبادة بن الصامت قال كان في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر بن الصديق رضي الله عنه قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » فهذا الحديث إنما أراد الاستغاثة فيما لا يقدر عليه المخلوق كما قال ابن تيمية ، على الحديث ضعيف كما بينته في الرد المحكم المتين ، ولا شك أن أولياء الله وأصفياءه يقدرون على الشفاعة إلى الله بإذنه فالاستعانة بهم أو الاستغاثة على أساس هذا المعنى لا شيء فيها ، الأمر الثاني في الحديثين المذكورين دليل الصوفية في قولهم برجال الغيب وأنهم موجودون خلافا لمن نفاهم من العلماء ، وتفصيل ذلك يطلب من مظانه .

« الدليل الثالث عشر » روى أبو يعلى من طريقين عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليأتين على الناس زمان يخرج الجيش من جيوشهم فيقال : هل فيكم من صحب محمدا صلى الله عليه وسلم فيستنصرون به فينصرون ، ثم يقال هل فيكم من صحب محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقال لا فيقال : فمن صحب أصحابه ؟ فلو سمعوا به من وراء البحر لأتوه » قال

---

(١) وروى ابن السني عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله احبسوا يا عباد الله احبسوا فإن لله عز وجل في الأرض حاضرا سيحبسه » ذكر النووي في الاذكار أنه جرب هذا الحديث وكذا شيخه من قبله فصح معهما .

الحافظ الهيثمي رجال الطريقين رجال الصحيح . فى هذا الحديث دليل على التوسل بالصحابة والاستنصار بهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثانى فى ذكر الآثار ونحوها

روى الطبرانى والبيهقى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى حاجة له فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته – أى لنسيانه لها كما يأتى – فلقى الرجل عثمان ابن حنيف فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فيقضى حاجتى وتذكر حاجتك ورح حتى أروح معك فانطلق الرجل فصنع ما قال ، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضى الله عنه فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان ابن عفان فأجلسه معه على الطنفسة فقال ما حاجتك فذكر حاجته فقضاها له ثم قال له ما ذكرت حاجتك حتى كان الساعة وقال ما كانت لك من حاجة فاذكرها ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته فى فقال عثمان بن حنيف والله ما كلمته ولكنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وذكر حديث الضرير السابق فى الباب الأول وهذه القصة صحيحة صححها الطبرانى ونقل تصحيحه الحافظ المنذرى فى الترغيب والحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد وأقراه عليه ، وروى ابن أبى شيبة باسناد صحيح كما قال الحافظ فى الفتح عن أبى صالح السمان عن مالك الدار – وكان خازن عمر – قال أصاب الناس قحط فى زمان عمر رضى الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله استسق الله لأمتك فإنهم قد هلكوا فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام وقال له ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك

الكيس الكيس ، فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضى الله عنه وقال يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه ، والرجل هو بلال بن الحرث المزنى أحد الصحابة كما رواه سيف (١) فى الفتوح ، وروى الدارمى فى سننه باسناد لا بأس به عن أبى الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطا شديدا فشكوا إلى عائشة فقالت انظروا قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ففعلوا فمطرنا مطرا حتى نبت العشب وسمنت الابل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق ، فهذه عائشة أم المؤمنين أمرتهم أن يكشفوا قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم مبالغة فى الاستشفاع به كما قال على القارى فى شرح مشكاة المصابيح لما تكلم على هذا الأثر وهذه القصة وقعت بعد قصة عمر السابقة .

وفى صحيح البخارى عن أنس أنهم أجدبوا زمن عمر فخرج الناس إلى المصلى فقال عمر رضى الله عنه اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون ، وقد فهم ابن تيمية وتبعه الوهابية أن فعل عمر هذا يدل على منع التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد انتقاله ، وهو خطأ لوجوه .

الأول أن ترك الشىء لا يدل على منعه كما تقرر فى الاصول فترك عمر للتوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لا دلالة فيه أصلا على منع التوسل وقد ترك النبى صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا من المباحات فهل دل تركه لها على حرمتها ؟ لم يقل بذلك أحد من العلماء .

الثانى أن الله تعالى يقول (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف

---

(١) طعن بعض المعاصرين فى رواية سيف بأنه متكلم فيه ، وهذا لا يضير لأن الرجل إن لم يكن بلال بن الحارث ، فهو يقينا إما صحابى أو تابعى ، لا شك فى ذلك وكفى بأحدهما حجة ، أضف إلى ذلك أن عمر لم ينكر عليه توسله ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم .

السوء) الآية ولا شك أن العباس كان فى تلك الحادثة من جملة المضطرين المحتاجين فكان التوسل به أنسب .

الثالث أن عمر أراد بالتوسل بالعباس رضى الله عنهما الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى إكرام العباس وإجلاله ، صرح عمر نفسه بذلك كما رواه الزبير بن بكار فى الانساب والبلاذرى فى فتوح البلدان وقد ذكرت نص كلامه فى الرد المحكم المتين كما أنه مذكور فى فتح البارى وغيره من كتب الحديث .

الرابع : أراد عمر بفعله ذلك أن يبين جواز التوسل بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الصلاح ممن ترجى بركته ولذا قال الحافظ فى الفتح عقب هذه القصة مانصه : يستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الصلاح والخير وأهل بيت النبوة اه .

الخامس أراد عمر أن يبين جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل لأنه كان فى ذلك الجمع من هو أفضل من العباس كعلى وعثمان رضى الله عنهما .

السادس أن توسل عمر بالعباس رضى الله عنهما هو فى الحقيقة توسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لأن العباس إنما توسل به الصحابة لكونه عم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولمكانته منه قال ابن عبد البر روينا من وجوه عن عمر رضى الله عنه أنه خرج يستسقى وخرج معه بالعباس رضى الله عنه فقال اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ونستشفع به فاحفظ فيه لنبيك صلى الله عليه وآله وسلم كما حفظت الغلامين لصلاح أبيهما وذكر بقية الخبر ، وروى الزبير بن بكار فى الانساب أن العباس لما استسقى به عمر قال اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بى إليك لمكانى من نبيك وهذه أيدينا إليك

بالذنوب ونواصينا بالتوبة فاسقنا الغيث فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس .

فهذا يدل على أن التوسل بالعباس توسل بالنبى صلى الله عليه وآله فى الحقيقة مع ما فى ذلك من إكرام العباس وإجلاله وذلك يرضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ويدخل السرور عليه فى قبره الشريف فظهر من هذه الوجوه أن فعل عمر رضى الله عنه لا دلالة فيه على منع التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد الانتقال كما زعم ابن تيمية ولو سلمنا تلك الدلالة جدلا — على ما يرد عليها من منع ظاهر — فغاية ذلك أن يقال هذا رأى عمر رضى الله عنه وقد خالفه عثمان بن حنيف وعائشة وبلال بن الحرث المزنى رضى الله عنهم وإذا اختلف الصحابة فليس بعضهم أولى بالاتباع من بعض ، بل يجب حينئذ الرجوع إلى الكتاب أو السنة وإذا فعلنا ذلك فى هذه المسألة وجدنا حديث الضرير يدل على التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى جميع الحالات فى الحياة وبعد الممات . ومن أدعى فيه الخصوصية أو التخصيص فعليه البيان ، على أن إقرار عمر لمن توسل بالنبى عند قبره كما تقدم قريباً دليل قاطع على أنه لا يرى منع التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن توسله بالعباس إنما كان للوجوه التى أبديناها .

وروى القاضى عياض فى الشفا باسناده إلى ابن حميد قال ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فان الله تعالى أدب قوما فقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) ومدح قوما فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية وذم قوما فقال (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) الآية وإن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به

فيشفعك الله قال الله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك) الآية ، وزعم ابن تيمية أن هذه الحكاية مكذوبة وأيده ابن عبد الهادى المقدسى بما أطال به من نقل نصوص التجريح فى ابن حميد ، وذلك غلو وافراط ، والحق أنها ضعيفة فقط وقد عمل المالكية بمقتضاها فصرحوا باستحباب التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحفظ عن أحد منهم بكراهته فضلا عن حرمته ، وقد نقلت فى الرد المحكم المتين كلام ابن الحاج صاحب المدخل والإمام قاسم العقبانى والإمام ابن عرفة والعلامة الشارمساحى وغيرهم من علماء المالكية وأئمتهم ، وهب الحكاية مكذوبة كما زعم ابن تيمية فنى إجماع المالكية على جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم غنى عنها ، وإنما اختلف المالكية فى التوسل بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم فمنعه ابن عبد السلام وطائفة وأجازه ابن عرفة والراجح عندهم كلام ابن عرفة كما بين فى غير هذا الوضع .

وروى الخطيب فى تاريخ بغداد قال أخبرنا القاضى أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الاستراباذى قال أنبانا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعى قال سمعت الحسن بن إبراهيم أبا على الخلال يقول ما همنى أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر - يعنى الكاظم - فتوسلت به إلا سهل الله لى ما أحب ، والخلال هذا شيخ الحنابلة فى وقته .

وروى الخطيب أيضا عن إبراهيم الحربى أحد أئمة الحديث أنه قال : قبر معروف — يعنى الكرخى — الترياق المجرب .

وروى أيضاً عن عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهرى قال : سمعت أبى يقول قبر معروف الكرخى مجرب لقضاء الحوائج ، ويقال : إن من قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله تعالى مايريد قضى الله له حاجته

وروى أيضا عن أبى عبد الله المحاملى أحد أئمة الحديث أنه قال : أعرف قبر معروف الكرخى منذ سبعين سنة ما قصده مهموم إلا فرج الله همه .

وروى أيضا عن على بن ميمون قال سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: انى لاتبرك بأبى حنيفة واجىء إلى قبره فى كل يوم يعنى زائرا فاذا عرضت لى حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عنى حتى تقضى .

وقال الحافظ أبو بكر ابن المقرى فى مسند اصبهان : كنت أنا والطبرانى وأبو الشيخ فى مدينة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فضاق بنا الوقت فواصلنا ذلك اليوم فلما كان وقت العشاء أتيت إلى القبر الشريف وقلت يارسول الله الجوع فقال لى الطبرانى: اجلس فأما أن يكون الرزق أو الموت فقمت أنا وأبو الشيخ فحضر الباب علوى ففتحنا له فاذا معه غلامان بزنبيلين بهما شىء كثير فقال يا قوم شكيتم إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فانى رأيته فأمرنى بحمل شىء إليكم ، نقل هذه الحادثة الحافظ السخاوى فى القول البديع ، وابن المقرى والطبرانى وأبو الشيخ كلهم من كبار الحفاظ المشهورين ، وذكر الحافظ السخاوى أيضا مما عزاه إلى أبى عبد الرحمن السلمى باسناده إلى أبى الخير الأقطع الزاهد قال دخلت المدينة وأنا بفاقة وأقمت خمسة أيام لم أذق ذواقا فتقدمت إلى القبر الشريف وسلمت على النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقلت أنا ضيفك الليلة يا رسول الله وتخليت ونمت خلف المنبر فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر عن يمينه وعمر عن شماله وعليا بين يديه فحركنى على وقال قم قد جاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقمت إليه وقبلت بين عينيه فدفع إلى رغيفا فأكلت نصفه فانتبهت فاذا فى يدى نصف رغيف وأبو الخير هذا ذكره القشيرى فى الرسالة وقال : مغربى الأصل سكن تينات وله كرامات وفراسة حادة كان كبير الشأن مات سنة بضع وأربعين وثلثمائة وذكر من كلامه قوله : ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة ومعانقة الأدب وأداء الفرائض وصحبة الصالحين ، ونقل ابن القيم فى الكلام على بدعة الرفض من كتاب الكبائر وكتاب السنه والبدعة له عن

الحافظ السلفي مما رواه باسناده إلى يحيى بن عطاف المعدل أنه حكى عن شيخ دمشقي جاور بالحجاز سنين قال كنت بالمدينة في سنة مجدبة فخرجت يوما إلى السوق لأشترى دقيقا برباعي قال فأخــــذ الدقاق الرباعي وقال العن الشيخين حتى أبيعك الدقيق فامتنعت من ذلك فراجعني مرات وهو يضحك فضجرت منه وقلت لعن الله من يلعنهما قال فلطم عيني فسالت على خدى فرجعت إلى المسجد وكان لي صديق من أهل ميافارقين يجاور بالمدينة سنين فسألني عما جرى فأخبرته فقام معي إلى الحجرة المقدسة فقال : السلام عليك يا رسول الله قد جئناك مظلومين فخذ بثأرنا ثم رجعنا فلما جن الليل نمت فلما استيقظت وجدت عيني صحيحة أحسن ما كانت وذكر بقية القصة فيما حصل لذلك الدقاق على لعنــــه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأماتنا على محبتهما .

وذكر ابن حجر الهيتمي في الزواجر قصة أخرى تقرب من هذه وقعت في المدينه أيضا واستشفع فيها برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انظرها في آخر كتاب الشهادات من الكتاب المذكور ؛ وفي أول تاريخ بغداد للحافظ الخطيب في الكلام على مقابر بغداد ومن دفن فيها من العلمـــاء والزهاد وغيرهم ما نصه : وعند المصلى المرسوم بصلاة العيد كان قبر يعرف بقبر النذور ويقال أن المدفون فيه رجل من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه يتبارك الناس بزيارته ويقصده ذو الحاجة منهم لقضاء حاجته .

حدثني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي حدثني أبي قال كنت جالسا بحضرة عضد الدولة ونحن مخيمون بالقرب من مصلى الأعيـــاد في الجانب الشرقي من مدينة السلام نريد الخروج معه إلى همذان في أول يوم نزل المعسكر فوقع طرفه على البناء الذي على قبر النذور فقال لي ما هذا البناء فقلت هــذا مشهد النذور ولم أقل قبر لعلمي بطيرته من دون هــذا . واستحسن اللفظة وقال قــد علمت أنه قبر النذور وإنمــا أردت شرح أمره

فقلت هــذا يقال أنه قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويقال إنه قبر عبيد الله بن محمد بن عمر ابن علي بن أبي طالب وأن بعض الخلفاء أراد قتله خفيا فجعلت له هناك زبية وسير عليها وهو لا يعلم فوقع فيها وهيل عليه التراب حيــا وإنما شهر بقبر النذور لأنه ما يكاد ينذر له نذر إلا صح وبلغ الناذر ما يريد ولزمه الوفاء بالنذر ، وأنا أحــد من نذر له مرارا لا أحصيها كثرة نذورا على أمــور متعذرة فبلغتها ولزمني النذر فوفيت به ، فلم يتقبل هذا القول وتكلم بما دل أن هــذا إنما يقع منه اليسير اتفاقا فيتسوق العوام بأضعافه ويسيرون الأحاديث الباطلة فيه ، فأمسكت فلمــا كان بعــد أيام يسيرة ونحن معسكرون في موضعنا استدعاني في غدوة يوم ، وقال : اركب معي إلى مشهد النذور فركبت وركب في نفر من حاشيته إلى أن جئت به إلى الموضع فدخله وزار القبر وصلى عنده ركعتين سجد بعدهما سجدة أطال فيها المناجاة بما لم يسمعه أحد ثم ركبنا معه إلى خيمته وأقمنا أياما ثم رحـــل ورحلنا معه يريد همذان فبلغناها وأقمنا فيها معه شهوراً فلما كان بعد ذلك استدعاني وقال لي ألست تذكر ما حدثتني به في أمر مشهد النذور ببغداد فقلت بلى ، فقـــال : إني خاطبتك في معناه بدون ما كان في نفسي اعتماداً لاحسان عشرتك والذي كان في نفسي في الحقيقة أن جميع ما يقال فيــه كذب فلمــا كان بعد ذلك بمديدة طرقني أمر خشيت أن يقع ويتم ، وعملت فكرى في الاحتيال لزواله ولو بجميع ما في بيوت أموالي وسائر عساكري ، فلم أجد لذلك فيه مذهبا فذكرت ما أخبرتني به في النذر لمقــبرة النذور فقلت لم لا أجرب ذلك فنذرت إن كفاني الله تعالى ذلك الأمر أن أحمل إلى صندوق هــذا المشهد عشرة آلاف درهم صحاحا فلمــا كان اليوم جاءتني الأخبار بكفايتي ذلك الأمر فتقدمت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف — يعني كاتبه — أن يكتب إلى أبي الريان — وكان خليفته ببغداد — يحملها إلى المشهد ثم التفت الى عبد العزيز وكان حاضرا فقال له عبد العزيز قد كتبت بذلك الكتاب اهـ ما ذكره الحافظ الخطيب .

وذكر الإمام الرافعي في كتاب التدوين في ذكر أخبار قزوين ترجمة سلمان بن ربيعة التميمي الباهلي وذكر الخلاف في كونه صحابيا أو تابعيا وذكر أنه دخل قزوين وأنه توفي سنة إحدى وثلاثين ببلنجر من ناحية أرمينية قال : ويقال أنه قتل ثم نقل الرافعي عن دلائل النبوة لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أن أهـــل تلك الناحية جعلوا عظامه في تابوت فاذا احتبس عنهم المطر أخرجوه واستسقوا به فيسقون قال ابن جماعة الباهلي يفتخر .

وإن لنا قبرين قبر بلنجر وقبرا بالصين يالك من قبر
فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

قال : ولو قال يسقى من القطر لكان أولى — أي ليتخلص من الأقواء المعيب عند متأخري الشعراء . على أن الشطر الثاني من البيت الأول مختل الوزن ولعله من تحريف الناسخ فان نسخة التاريخ التي نقلت منها محرفة جدا ثم قال والقبر الذي بالصين قبر قتيبة بن مسلم الباهلي والذي بالترك قبر سلمان بن ربيعة ا هـ قلت أما سلمان بن ربيعة فكان من ولاة عمر رضي الله عنـــه والراوين عنـه وهو من رجال مسلم له ترجمة في التهذيب وتهذيب التهذيب وغيرها ، وأما قتيبة بن مسلم فلم أقف الآن على ترجمة له والله أعلم .

وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي في مناقب الامام أحمد ما نصه :

الباب السابع عشر في ثناء غرباء العباد والأولياء عليه ثم روى باسناده عن أحمد بن العباس الشامي قال : خرجت من بغداد أريد الحج فاستقبلني رجل عليـه أثر العبادة فقال لي من أين خرجت قلت من بغداد خرجت منها لما رأيت فيها من الفساد فخفت أن يخسف بأهلها قال ارجع ولا تخف فان فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن لهم من جميع البلايا قلت من هم قال أحمد بن حنبل ومعروف الـكرخي وبشر بن الحرث ومنصور بن عمـار فرجعت وزرت القبور ، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد وزاد ولم أخرج

تلك السنة ، غير أنه قال في أول القصة خرجت من بغـــداد وزاد ولم يقل أريد الحج ، ونقل العلامة أبو حامد محمد العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن ، عن والده المترجم له بهذا الـكتاب وهو العـلامة الـكبير والولي الشهير أبو المحاسن يوسف بن محمد الفصري نزيل فاس ودفينها أنه سئل عن قول أبي محمد الشارمساحي رحمه الله زيارة الموتى بترحم الأحياء وقصد الانتفاع بالميت بدعة إلا في زيارة قبر المصطفى صلى الله عليـه وسلم وقبور المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين فأجاب بأن ما ذكره الشارمساحي سبقه به غيره وقال ليس من طريق القوم وذكره ابن العربي وقال « لا يزار قبر ينتفع به غير قبر نبينا صلى الله عليه وسلم ، لكن الذي عليه الجمهور وجرى به العمل في الآفاق زيارة قبور الصالحين والانتفاع بهم واقتباس بركاتهم ، إذ هم أبواب الله قال حجة الاسلام في كتاب آداب السفر من الأحياء وكل من يتبرك بمشاهدته في حيـــاته يتبرك بزيارته بعد وفاته ويجوز شد الرحال لهذا الغرض ولا يمنع من هـــذا قوله صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » الحديث ونقل كلام الغزالي في الجواب عنه كما نقل كلام الحافظ في فتح الباري الذي جوز فيه شـــد الرحلة إلى القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين .

ونقل مثله عن العـلامة أبي القاسم العبدوسي المالـكي شيخهم ، ثم قال وأما ما يقصد فيها أو يحصل منها فقال الشيخ أبو العباس زروق في قواعده ما صح واتضح وصحب العمل لازم الإباحة كزيارة المقابر فقيل ليس إلا لمجرد الاعتبار بها لقوله عليه الصلاة والسلام فانها تذكر الآخرة قيل ولنفعها بالتلاوة والذكر والدعاء الذي اتفق على وصوله كالصدقة قيل وللانتفاع بها وهو الذي في الاحياء وقد قال الشافعي رضي الله عنه قبر موسى الـكاظم الترياق المجرب ا هـ

ثم نقل كلاما في هذا الموضوع إلى أن قال وقد قال الشيخ أبو العباس

ابن عقبة لتلميذه الشيخ أبى العباس زروق أى المددين أقوى مدد الحى أو مدد الميت فقال الشيخ زروق أنهم يقولون مدد الحى وأنا أقول مدد الميت فقال له الشيخ ابن عقبة صدقت لأنه على بساط الحق فالظاهر من كلامهما إن زيارة الميت أنفع وظاهر ما فى رسـالة القشيرى من أن قبر معروف يستشفى به ترياق مجرب جوازها عنده ، وفى مدخل ابن الحاج إن كان الميت المزور ممن ترجى بركاته فيتوسل إلى الله تعالى به وكذلك يتوسل بالميت ممن ترجى بركاته إلى النبى صلى الله عليه وسلم بل يبدأ بالتوسل الى الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم اذ هو العمدة فى التوسل والأصل فى ذلك كلـه والمشروع له فيتوسل به صلى الله عليه وسلم ومن تبعه باحسان ثم يتوسل بأهل تلك المقابر أى بالصالحين منهم ويكثر التوسل بهم الى الله تعالى لأنه سبحانه قد اجتباهم وشرفهم وكرمهم وكما نفع بهم فى الدنيا ففى الآخرة أكثر فمن أراد حاجته فليذهب اليهم وليتوسل بهم فانهم الواسطه بين الله تعالى وبين خلقه وقد تقرر فى الشرع وعلم ما لله تعالى بهم من الاعتناء وذلك كثير مشهور وما زال النـاس من العلماء والأكابر كابرا عن كابر مشرقاً ومغرباً يتبركون بزيارة قبورهم ويجدون بركة ذلك حساً ومعنى وقد ذكر الشيخ الإمام أبو عبد الله بن النعمان فى كتابه سفينة النجا لأهـل الالتجا فى كرامات الشيخ أبى النجا فى أثناء كلامه على ذلك ما هذا لفظه تحقق ذوو البصائر والاعتبار أن زيارة قبور الصالحين محبوبة لأجل التبرك مع الاعتبار فان بركة الصالحين جارية بعد مماتهم كما كانت فى حياتهم والدعاء عند قبور الصالحين والتشفع بهم معمول به عنـد علمائنا المحققين من أئمـة الدين اه ما ذكره ابن الحاج .

وقال الحافظ السخاوى فى أواخر المقاصد الحسنة . والمكان المعروف بالسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب — التى وصفها الحافظ العلم البرزالى بأنها خفيرة ديار مصر اه وبه انتهى ما أردنا نقله على وجه الاختصار ، وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أننا قصدنا بما ذكرناه

من الآثار وأقوال العلماء فى هذا الباب أبطال دعوى ابن تيمية أنه لم يأت عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا علماء السلف أنه أتى الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أو قبر غيره وتوسل به الى الله وانهم انمـا كانوا يتوسلون به حال الحياة كما فعل عمر فى الاستسقاء بالعباس فانه قال اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ولاشك أن هذه الدعوى من ابن تيمية باطلة كما تبين مما نقلناه عن عثمان بن حنيف وبلال بن الحرث المزنى وعائشة والحافظ بن المقرى وأبى الخير المغربى والخلال وغيرهم ممن نقلنا كلامه معزوا الى من رواه وقد حذفنا الأسانيد اختصاراً واكتفاء بذكرها فى كتابنا الرد المحكم المتين .

وفى الاذكار للامام النووى أثناء الكلام على زيارة القبر الشريف ما نصه ثم يرجع الى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتوسل به فى حق نفسه ، ويتشفع به الى ربه سبحانه وتعالى اه .

قال ابن علان الصديقى فى شرحه ، لأن التوسل به سيرة السلف الصالح الأنبياء والأولياء وغيرهم اه

تتمـــة

تقدم فى أثر الباقر ص ٤ أن جبريل لقن آدم التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم وكان آدم قد رأى وهو فى الجنة اسم النبى مكتوبا فيها ثم نسيه فلمـا لقنه جبريل ذكره وحين سأله الله تعالى كيف عرف محمداً ؟ أجابه بأنه رأى اسمه مكتوبا ، وهذا هو الواقع . ولم يقل جبريل عرفه به لأنه خلاف الواقع ، لأن جبريل انما ذكره بعد نسيان .

الفهرس